الغيب والشهادة في القرآن الكريم (٦)

الشهداء في الدنيا والآخرة

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

الشهداء في الدنيا والآخرة

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

الشهداء في الدنيا والآخرة، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

مقدمة:

في الأجزاء السابقة تحدثت عن (المشهود به)، ومن شهد بذلك. وخصصت هذا الجزء للمشهود عليه.

وجعلته في قسمين، الأول: الشهداء في الدنيا، والثاني: الشهداء يوم القيامة.

تناولت في القسم الأول مفهوم الشهيد، والفرق بينه وبين القتيل في سبيل الله، والشهداء في الدنيا، والمقصود بشهادتهم في الدنيا، وبينت أن كل إنسان شهيد على نفسه بالإيمان أو بالكفر، وأما المنافقون فقد تكفل الله بالشهادة بكذبهم.

كما تحدثت عن مفهوم الشهداء في قوله (لتكون شهداء على الناس)، ومفهوم الاجتباء والأمة الوسط، وهل كل المسلمين شهداء على الناس، والمقصود بالناس الذين يشهد عليهم المسلمون.

وفي القسم الثاني تناولت الشهداء وشهاداتهم يوم القيامة، وبينت أن يوم القيامة مشهدان، الأول: القضاء بالحق، والثاني القضاء بالقسط. وهذان المشهدان بعد أن يأخذ الناس كتبهم بأيديهم، فالنتيجة تسبق القضاء، ثم يأتي القضاء بالحق وبالقسط فلا تظلم نفس شيئا، ويأتي الناس وأعمالهم مشهودة لا يغيب منها مثقال ذرة.

والمشهد الأول: الشهادة بالحق، يكون الحكم فيه فيما يتعلق بشهادة الوحدانية، واختلاف الناس في هذه الشهادة. وفيها يشهد الله بأنه لا إله إلا هو، ثم يأتي الشهداء (النبيون والشهداء)، ثم يقوم

الأشهاد. والأشهاد عامة الخلق الذين آمنوا بالله إلها واحدا، سواء آمنوا طوعا أو كرها، ويأتي الكافرون فيريدون أن يشهدوا بالحق، فيردون وتقام عليهم الحجة، فيعترفون ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، وعندئذ يلعن هؤلاء الأشهاد كلهم من كفر بربه وكان يشهد بالباطل في الدنيا. وتنتهي الجولة الأولى من مشهد اليوم العظيم.

والمشهد الثاني: الشهادة بالقسط، وهو الشهادة على كل نفس بما كسبت، وكسب النفس، قسمان: كسب متعلق بحقوق الناس، وقسم لا يتعلق بحقوق الناس. فيبدأ بالقسم الأول وأوله الدماء. ثم القسم الثاني. وفي هذا المشهد لا يشهد النبيون ولا أحد من البشر، والشهداء فيه، هم: الله، والملائكة، والكتاب، والجوارح، والأرض.

اللهم ربنا آمنا بما أنزلتَ واتبعنا رسولك فاكتبنا مع الشاهدين.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

رمضان — ١٤٣٥هـ / يوليو ٢٠١٤م

abdmmys81@hotmail.com

تمهيد: الشهداء والشهادات

خلاصة المفاهيم:

ذكرت في الجزء الأول من البحث مفهوم الشهادة والشهيد، وخلاصته ما يلي:

الشهادة: شيء موجود، ظاهر، غير محجوب.

الشهادة بالشيء: إظهار الشيء، إظهارا بينا.

الشهادة على الشيء: ظهور الشيء للشاهد ظهورا بينا، بحيث لا يخفى عليه، فشهادته عليه: إظهار لعلمه بحاله، واطلاعه عليه.

الشهيد (الله): الذي يظهر الأشياء بعد خفائها، فيجعلها مشهودة ظاهرة بعد أن كانت مستورة غائبة.

الشاهد/الشهيد (من الخلق): كل من يُظهر شيئاً ما إظهارا بينا، بعلم أو بلا علم، حقا أو باطلا، وسواء أكان ذلك الإظهار بطريق القَصّ (إنباء أو إخبار)، أو بطريق إقامة البينات، أو القرائن، أو بطريق اليمين، أو بطريق الإقرار.

والشهيد هو من يشهد بالشيء، أو من يشهد على الشيء.

❖ ❖

وبينت أن فعل الشهادة أسند إلى الله وإلى غير الله. حيث أسند إلى:

وقد جعلت التقسيم الأساس للدراسة: المشهود به، والمشهود عليه.

فالمشهود به: وحدانية الله، وكتابه، ورسالة نبيه. وقد شهد بذلك: الله والملائكة وأولو العلم. وقد تناولت في الأجزاء السابقة الشهادة بوحدانية الله، وبكتابه، وبرسالة نبيه.

وفي هذا الجزء سأتناول (المشهود عليه)، في الدنيا والآخرة. والشهداء على ذلك. وسأجعله قسمين: القسم الأول: الشهداء في الدنيا، والقسم الثاني: الشهداء يوم القيامة.



القسم الأول: الشهداء في الدنيا

(١) كل إنسان شهيد على نفسه بالإيمان أو بالكفر في الدنيا:

(أ) شاهدين على أنفسهم بالكفر:

قال تعالى: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ).

قال ابن عطية: (إشارة إلى حالهم إذ أقوالهم وأفعالهم تقتضي الإقرار بالكفر والتحلي به، وقيل الإشارة إلى قولهم في التلبية إلا شريك هو لك ونحو ذلك، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: الإشارة إلى أن النصراني كان يقول أنا نصراني واليهودي كذلك والوثني يقول أنا مشرك).

والوجه هو ما ذكره أولا، وهو يشملها كلها. فشهادة الكافر على نفسه بالكفر يعني إظهاره الكفر وتبيينه، فالمشركون العرب كانوا ينصبون الأصنام (كاللات والعزى وهبل ومناة)، ويعبدونها، وكانوا يقولون: أجعل الآلهة إلها واحدا، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وكانوا يجعلون لآلهتهم نصيبا مما ذرأ الله من الحرث والأنعام، فبحروا البحيرة وسيّبوا السائبة ووصلوا الوصيلة، ويقولون: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك)... الخ.

والكافرون يشهدون على أنفسهم بالكفر، أياً كانوا، فالملحدون مثلا: يقولون: لا إله والحياة مادة، وينكرون وجود الخالق، وينكرون البعث، ويقولون: ما يهلكنا إلا الدهر، ولا يعبدون ربا ولا يرجون رضاه ولا يخافون عقابه. فهم يشهدون على أنفسهم بالكفر، بما يقولون وما يفعلون.

والنصارى مثلا يشهدون على أنفسهم بالكفر حين يقولون: الله ثالث ثلاثة، أو يجعلون ابن مريم وأمه آلهة مع الله...

وهكذا فما من كافر إلا وهو يشهد على نفسه بالكفر في الدنيا، وشهادته تعني أنه يظهر الكفر ويبينه في أقواله وأفعاله.

❖ ❖

وكما أن الكافر شهيد على نفسه بالكفر، فكذلك المسلم شهيد على نفسه بالإيمان، من خلال قوله وفعله، فعبادته إلها واحدا لا شريك له، وإخلاص فعله له، وتقديم نسكه له، والتصديق بلقائه، وبوعد ووعيده، والائتمار بأمره والانتهاء عما يغضبه... كل ذلك شهادة المؤمن على نفسه بالإيمان.

وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُغِير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذانا أمسك وإلا أغار. فهو يريد أن يستبين من شهادة القوم على أنفسهم بالإيمان أو الكفر، والأذان بينة على هذه الشهادة.



وهذه الآية تعني أن المساجد لله وحده، فكيف يعمرها كافر وهو يشهد على نفسه بالكفر؟! وكان مشركو العرب يتفاخرون بأنهم يعمرون البيت الحرام، ويسقون الحجيج، ويطعمونهم، فقال الله لهم:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).



والناس (في إيمانهم وكفرهم) ثلاث فئات: مؤمن وكافر ومنافق، فأما المؤمن والكافر فإن كلا منهما شاهد على نفسه (المؤمن يشهد على نفسه بالإيمان، والكافر يشهد على نفسه بالكفر). فشهادة كل منهما على نفسه صادقة، إذن ينطبق ظاهرها مع باطنها.

أما المنافق فهو (عند المؤمنين) يظهر الإيمان ويخفي الكفر، (وعند الكافرين يظهر الكفر)، وبذلك فهو يخادع المؤمنين، فالمنافقون يحاولون أن يشهدوا على أنفسهم بالإيمان؛ حيث يدعون أنهم يعبدون الله، ويصلون كما يصلي المؤمنون، ولا يظهرون الكفر، ولكن شهادتهم بالإيمان كاذبة. ولذلك فقد شهد الله بأنهم كاذبون، وتكفل سبحانه وتعالى بأنه سيظهر كذبهم، ويبينه، فيظهر حقيقتهم التي يبطنونها. قال تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ).

فقولهم: (نشهد إنك لرسول الله) هو شهادة بالإيمان، ولكنها شهادة كاذبة؛ إذ هم كافرون، فتناقضت الشهادة، فتكفل الله بالشهادة عليهم بالكذب.

(ب) والله يشهد إنهم لكاذبون:

جاء في ثلاثة مواضع، شهادة الله بكذب المنافقين،

قوله: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)،

وقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)،

وقوله: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ).

فلم يشهد الله في كتابه بكذب أحد سوى المنافقين. فالمنافقون هم من يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ)، (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)، (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ).

فشهادة الله بكذبهم هو إظهار زيف ما يُظهرونه، وبيان أنما يخادعون به المؤمنين. فيفضحهم عند الناس، ويبين كذبهم. وذلك أنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، فلا يستطيعون أن يستمروا على ذلك، بل يَبدو ما يبطنونه في فلتات ألسنتهم، وسيماء وجوههم. فتفضحهم أفعالهم وأقوالهم واختلافها، وتباينها مع لغة وجوههم.

قال تعالى: (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)، (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ).

والقرآن الكريم قد بيّن أساليبهم، وأفعالهم، وأهدافهم. فيستطيع المسلمون في كل زمان ومكان أن يكشفوهم، بنور الله الذي منحهم. يكفيك أن ترى في أفعاله وأساليبه لتتبين لك حقيقته وأهدافه. وسأفرد لهذا بحثا مستقلا إن شاء الله.



(ج) ويُشهد اللهَ على ما في قلبه:

وقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) **فالمعنى كما قال ابن عباس ونقله الطبري وغيره، وهذا نص ابن كثير (وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه). قال الشوكاني: (يحلف على ذلك فيقول: يشهد الله على ما في قلبي من محبتك أو من الإسلام).**

فالمعنى أنه يحلف لهم بأنه يعتقد ما يقوله. فالحلف هو إشهاد الله أن ما يقوله هو ما يعتقده. حين يقول: والله إني لصادق، يكون قد أشهد الله على ما في قلبه؛ إذ لا يعلم ما في القلب إلا الله، والناس لا يدرون إلا ما ظهر من القول.

وهذا كقوله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ

أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)، **فالمنافقون اشتهروا بالحلف؛ إذ هم يعلمون في قرارة أنفسهم بأنهم كاذبون، فيظل هاجس الكذب مسيطرا عليهم، فيعتقدون أن الناس يظنون بهم الكذب، ومن ثم يسارعون إلى الحلف؛ لعلمهم أن المؤمنين يُعْظمون شأن اليمين، ويصدقون المُقسم بالله.**

فالمنافقون أشهدوا الله (بحلفهم) على ما في قلوبهم، والله سبحانه وتعالى شهد بأنهم كاذبون (وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). **ولم يشهد بكذب أحد سواهم؛ فهم من استشهدوه، وهو شهد عليهم بأنهم قوم كاذبون.**

ولما كان إشهادهم كاذبا؛ إذ شهادتهم كاذبة، أكذبهم الله، بخلاف الكافرين (فهم صادقون في شهادتهم على أنفسهم بالكفر)، والمؤمنين (فهم صادقون في شهادتهم على أنفسهم بالإيمان).



ومثل ذلك:

قوله: (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا)،

وقوله: (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ)،

وقوله: (وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

ولأن الحلف بالكذب صار عادتهم، فإنهم لا يستطيعون الانفكاك عن هذه العادة، حتى حين يقفون بين يدي ربهم، الذي يعلم السر وأخفى، فمن شب على شيء شاب عليه: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ

لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ).

□

(د) وإنه على ذلك لشهيد:

قال تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ).

في تفسير الماوردي: ("وإنَّه على ذلك لَشهيدٌ"، فيه قولان، أحدهما: أن الله تعالى على كفر الإنسان لشهيد، قاله ابن جريج. الثاني: أن الإنسان شاهد على نفسه؛ لأنه كنود، قاله ابن عباس).

والوجه عندي ما قاله ابن عباس، فالضمائر كلها تعود للإنسان في الآية السابعة والثامنة (وإنه)، وفي التاسعة (يعلم). وفي الآية الأخيرة أظهر لفظ الجلالة، ولم يكن ضميرا (إن ربهم)، ولم يقل: (إنه)، فما قبله من ضمائر للإنسان.

فالإنسان شهيد على كنوده، والكنود: كما في الصحاح: (كفر النعمة)، وفي المفردات للراغب: (كفور لنعمته، كقولهم: أرض كَنُودٌ: إذا لم تنبت شيئا). وكفر النعمة كفر بالمنعم، فمن كان لربه كنودا، فإنه كافر به.

والإنسان الكافر شهيد على نفسه بالكفر، كما بينت ذلك آنفا، فمن يرزقه ربه وينعم عليه بالنعم كلها ثم لا يشكره ولا يذكره ولا يعبده ولا يطيعه، فقد شهد على نفسه بالكفر.



وآيات القرآن الكريم كلها تطلب من الإنسان أن يكون شهيدا على نفسه بالإيمان لا بالكفر، كما قال: (وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ). **فالشكر شهادة بالإيمان، والجحود شهادة بالكفر. وغالبا ما تعقب آيات**

النعم الدعوة إلى الشكر، والتحذير من الكفر.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)،

وقال: (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)،

وقال: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)،

وقال: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)،

وقال: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)،

وقال: (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)،

وقال: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)...

وقال: (أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ).

□

(٢) الشهادة على الناس

(أ) مفهوم "الشهداء":

ذكرت في الجزء السابق (شهد الله أنه لا إله إلا هو) أن المقصود بـ(الشهيد) والشهداء) في القرآن الكريم هم: أولوا العلم الذين شهدوا بوحدانية الله في الدنيا (أي: أظهروا الشهادة وبينوها بالبينات التي جعلها الله بينات على شهادته). ولذلك يقرنهم الله مع النبيين، فهم ورثة النبيين، الذين يرثون علم الله منهم، ويبينونه للناس ولا يكتمونه.

وأولوا العلم هم: (مَنْ عندهم علم الله الذي أنزله في آيات كتابه، أو نصبه في آيات خلقه). وهم شهداء بوحدانية الله، (فقد تبين لهم الحق بيانا واضحا)، سواء أبينوا الشهادة أم كتموها.

وذكرت أن المطرد من استخدام القرآن الكريم للفظ (الشهداء) و(الشهيد) لم يرد بمعنى القتيل في سبيل الله، وحيثما ذكر القتيل في سبيل الله، ذكره كذلك.

والمراد بقوله تعالى ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾**: فالذين اتخذهم الله شهداء، هم الشهداء الذين ماتوا أو قتلوا وهم شاهدون بوحدانية ربهم. فقد يكون الإنسان شهيدا، ثم ينكل عن شهادته فلا يموت عليها، فهو ليس بشهيد.**

فالشهداء هم أولو العلم الذين يشهدون بوحدانية الله، ويبينونها للناس، ويجاهدون بأنفسهم وألسنتهم في تحقيق شهادة

التوحيد، ويبذلون أرواحهم ويسترخصون دماءهم وحياتهم في سبيل ربهم الواحد القهار، سواء أقتلوا أم ماتوا. (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ).

وبينت الفرق بين: الشهداء، والصديقين، والصالحين.

(ب) كل نبي شهيد على قومه في حياته:

أخبرنا الله تعالى أن كل رسول شهيد على قومه في الدنيا، وفي الآخرة،

شهادة عيسى:

قال تعالى عن شهادة عيسى على قومه في الدنيا:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

وقال عن شهادته عليهم في الآخرة:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا).

❖ ❖

والمفسرون على أن شهادة عيسى على قومه في الدنيا اطلاعه

عليهم، قال الطبري: (وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهدًا عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم)، وقال أبو السعود: (رقيبا أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك وأمنعهم عن المخالفة أو مشاهدا لأحوالهم من كفر وإيمان).

وأن شهادته عليهم في الآخرة، كما قال قتادة: (يكون عليهم شهيدًا يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالة ربه، وأقرّ بالعبوديّة على نفسه)، وقال الطبري: (شاهدًا عليهم بتكذيب من كذَّبه منهم، وتصديق من صدقه منهم، فيما أتاهم به من عند الله، وبإبلاغه رسالة ربه).

وعلى ذلك حملوا شهادة الرسل على قومهم.



التحقيق:

ذكرتُ سابقا أن الشهادة هي الإظهار، والشهادة على الشيء تعني: ظهور الشيء للشاهد ظهورا بينا، بحيث لا يخفى عليه، فشهادته عليه: إظهار لعلمه بحاله، واطلاعه عليه. فالشيء ظاهر للشاهد، والشاهد ظاهر على الشيء، أي مطلع عليه عليم به. وبينت أن التركيب: (شهد عليه)، لا يعني ضده، بل يعني أن الشاهد مطلع على حال المشهود، وأنه قادر على إظهار ذلك، عن علم.

فقوله (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ)، تعني أنه مطلع عليهم، عليم بهم، وأن حالهم ظاهر له، وأن ذلك يجعله قادرا على إبانة حالهم، سواء أحسنوا أم أساءوا. فهذه شهادته عليهم في الدنيا.

فهو يشهد بما بدا له؛ إذ لا علم له بما خفي عنه. ومن ثم فهو لا يشهد على أفعالهم؛ لأنه لا يشهد على الأفعال إلا العليم بها كلها، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي يشهد على أفعال الناس. فعلام يشهد إذن؟

إنه يشهد على أن (شهادة الله بوحدانيته) قد تبينت لهم، وأنه لم يألُ جهداً في تبيينها، فقد بلغ رسالة ربه إليهم، وقد بلَغَتْهم الرسالة. سواء آمنوا به أم كفروا. فهذا ما يشهد به النبي على قومه. فهذه شهادته في الدنيا، وكل نبي لا يموت حتى يكون شهيدا على الناس: أن شهادة الله بوحدانيته قد تبينت للناس، وأن الحجة قد قامت عليهم، وأنه لا حجة لهم على الله. (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).

وشهادته عليهم في الدنيا هي شهادته عليهم يوم القيامة، فسيبعثه الله ويشهد أن قومه قد تبينت لهم شهادة الله، وقامت عليهم الحجج، وأنه بلغها، فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها، فلا عذر لأحد. وهذه الشهادة بالحق: (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

والله سبحانه وتعالى لا يتوفى رسوله حتى يبلغ رسالته، ويقيم الحجة على الناس. فهذه شهادته عليهم.



شهادة إبراهيم:

ومثل قول عيسى عليه السلام، قول أبيه إبراهيم عليه السلام:

(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ).

المفسرون على أن إبراهيم شهد على وحدانية ربه، قال الطبري: (وأنا على ذلكم من أن ربكم هو ربّ السماوات والأرض الذي فطرهنّ، دون التماثيل التي أنتم لها عاكفون، ودون كلّ أحد سواه شاهد من الشاهدين)، وقال البغوي: ("من الشاهدين" أي على أنه الإله الذي لا يستحق العبادة غيره). وكذلك قال المفسرون.

التحقيق:

إلا أن إبراهيم قال: (وأنا على ذلكم من الشاهدين)، فهو شهد على شيء، والمؤمن لا يشهد على وحدانية ربه، ولكنه يشهد بها، كما شهد الله وملائكته وأولو العلم بها. فـ(ذلكم) يضعف حملها على الوحدانية أو الربوبية.

والذي يفسر هذه الآية قول عيسى: (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ).

فإبراهيم عليه السلام، يقول: (وأنا على ذلكم من الشاهدين)، أي: شاهد على أن الحق قد تبين لكم والحجة قامت عليكم، وسأشهد عليكم يوم القيامة. فشهادته هنا: على قومه، ولا يصح حملها على ربه. فالمؤمن يشهد بالله، ولا يشهد عليه.



شهادة محمد:

وكقوله عن نبييه محمد وموسى عليهما السلام: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا)، **أي: شاهدا على قومه الذين أرسل إليهم، سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا، كما كان موسى شاهدا على فرعون وقومه.**

ومثله قوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ). **فالله أرسله شاهدا على قومه  الدنيا بأن الحق قد تبين لهم، وأن شهادة الله قد بلغتهم، وقامت الحجة عليهم.**

❖ ❖

ولو تأملت الآيات السابقة، فتجد أن الحديث عن الشهادة مقترن بالحديث عن الوحدانية، فعيسى ذكر ذلك بعد أن قال الله له (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، **فتبرأ من ذلك، وقال:** (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ). **أي: كنتُ شهيدا عليهم بأن الحق (وهو أن الله واحد) قد تبين لهم، (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد)، أي: كنتَ أنت شهيدا على ما يعملون، وشهيدا على كسبهم، وشهيدا على إيمانهم أو كفرهم، فأما أنا فشهادتي على أن الحق قد تبين لهم.**

وكذلك إبراهيم عليه السلام، حين قال له قومه (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)، **أي ما تدعو إليه أن الله واحد، أهذا هو الحق**

أم أنت من اللاعبين المستهزئين بآلهتنا، وتماثيلنا التي نحن عاكفون لها، فقال لهم: (قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)، **أي: بل جئتكم بالحق، فربكم هو الواحد الخالق، وأنا شاهد على أن هذا الحق قد تبين لكم.**

(ج) ويوم نبعث من كل أمة شهيدا:

قال تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)،

وقال: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ)،

وقال: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)،

وقال عن عيسى عليه السلام:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا).



يبعث الله من كل أمة شهيدا عليهم، فيشهد بأن شهادة الحق (وحدانية الله) قد تبينت لهم، وأن بيناتها ظهرت لهم، وأن الحجة قامت عليهم. وشهادته على أمته كلها مؤمنهم وكافرهم. فهو شهيد على الكافرين كما هو شهيد على المؤمنين.

وبعد أن يشهد النبيون على أممهم، يأتي الشهداء من كل أمة فيشهدون على أممهم، يشهدون أن الحق قد تبين لهم، وأن البينات قد استبانت لهم، وأن الرسل قد بلغوهم.

وعندئذ يقضي الله بين الناس بالحق، قال تعالى:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ).

وشهادة النبيين تكون في المشهد الأول من مشاهد يوم القيامة.

(وسأتحدث عن ذلك لاحقا).



فالخلاصة أن كل نبي شهيد على قومه، والله سيبعث على كل قوم شهيدا من أنفسهم، كما قال: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)، **أي: فلا يشهد عليهم أحد من غيرهم. وهو يشهد على قومه مؤمنهم وكافرهم، بأن الحق لهم تبين، وأن البينات لديهم استبانت، وأن الحجة عليهم قامت.**



وكذلك رسولنا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم سيكون شهيدا على أمته، كما قال تعالى:

(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ)،

وقال: (لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ).

قال ابن الجوزي في شهادة الرسول على أمته ثلاثة أقوال، (أحدها: بأعمالهم. والثاني: بتبليغهم الرسالة. والثالث: بإيمانهم، فيكون على هذا «عليكم» بمعنى: لكم. قال عكرمة: لا يسأل عن هذه الأمة إلا نبيها).

غير أن شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته كشهادة الأنبياء على أممهم، في الدنيا والآخرة، يشهدون بأن الحق بلغهم، وأن شهادة الله بالحق تبينت لهم. فهذه شهادته على أمته.

□

(د) لتكونوا شهداء على الناس:

جاء في آيتين الخطاب لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم، بأنهم يكونون شهداء على الناس،

قال تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ).

أقوال المفسرين:

قال الطبري: (وكذلك جَعلناكم أمَّة وسَطًا عُدولا لتكونوا شُهداءَ لأنبيائي ورسُلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أُمرَت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكونَ رسولي محمدٌ صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي).

كما أورد المفسرون الحديث الذي رواه البخاري: ("يجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، يا رب، فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم، فتشهدون"، ثم قرأ رسول الله صلى

الله عليه وسلم: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"‌).

وقال ابن عطية: (واختلف المفسرون في المراد بـ "النَّاسِ" في هذا الموضع، فقالت فرقة: هم جميع الجنس، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد يوم القيامة للأنبياء على أممهم بالتبليغ... وقال مجاهد: معنى الآية تشهدون لمحمد صلى الله عليه وسلم أنه قد بلغ الناس في مدته من اليهود والنصارى والمجوس... وقالت طائفة: معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت بالخير أو الشر).



التحقيق:

حديث الرسول صلى الله عليه وسلم نص في تفسير الآية، ولا نعدل عنه.

وهنا بحث يتعلق بذلك.

المسألة الأولى: (لتكونوا شهداء على الناس)، بم يرتبط التعليل؟

في آية البقرة ارتبط التعليل بقوله (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)، وفي سورة الحج ارتبط بقوله: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ). فقوله اجتباكم، يفسره قوله (جعلكم أمة وسطا)، فالله اجتبى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فجعلها أمة وسطا. وهذا هو اجتباء الله لها. وقد ارتبطت شهادة الأمة بهذا الاجتباء. وهذا يرجح تعلق التعليل في آية الحج بقوله (اجتباكم).



المسألة الثانية: ما مفهوم الاجتباء؟ و(أمة وسطا)؟

ورد لفظ" اجتبى" مسندا إلى الله سبحانه وتعالى تسع مرات، في ست منها كان الاجتباء واقعا على رسله، بصريح اللفظ، وفي مرتين كان مطلقا أحدهما يتعلق بالمسلمين، وفي مرة وقع لفظ الاجتباء على أمة محمد صلى الله عليه وسلم[1].

قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، **أي: يختار من شاء من رسله ليطلعهم على الغيب، فيكونون شهداء على هذا الغيب.**

وقال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، **فقرن هنا بين اجتباء إبراهيم وبين أنه كان أمة. (وهو الموضع الوحيد الذي ذكر فيه اجتباؤه وأنه كان أمة).**

وقال: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ)، **فهذا الاجتباء مطلق، ولكن السياق يدل على أنه واقع على المؤمنين.**

ويقترن لفظ الاجتباء غالبا مع لفظ الهداية، وقد اقترنا في خمسة مواضع.

فالاجتباء هو اختيار الله لمن شاء من عباده؛ ليكونوا شهداء على

---

[1] ملاحظة: لفظ "المؤمنون" في القرآن الكريم وصف سمي به أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا استخدمته هنا فأقصد به ذلك، فقد أستخدمه وقد أستخدم لفظ: المسلمون، وكلاهما أستخدمها للمسمى نفسه.

الغيب. فالرسل اجتباهم الله فأطلعهم على الغيب، فكانوا شهداء عليه. والمؤمنون اجتباهم الله فأطلعهم في القرآن الكريم على أنباء الغيب من الأمم السابقة؛ ليكونوا شهداء على الناس.

ومن ثم فقوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)، أي: أمة مجتباة، فالوسط هو خيار الشيء وأفضله، والله لم يجتب من البشر إلا الرسل، وإلا المؤمنين. ومن ثم فالشهداء يوم القيامة هم الرسل (كل رسول يشهد على أمته)، والمؤمنون [يكونون شهداء على الناس].

والرسول صلى الله عليه وسلم مثله مثل الرسل، سيكون شهيدا على أمته فقط، وهذا قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ)، فالشهيد على كل أمة رسولها الذي بعث إليها (من أنفسهم)، ورسولنا شهيد على أمته فحسب، كما قال (على هؤلاء)، وقال: (عليكم).

أما المؤمنون فيكونون شهداء على الناس، والناس هنا هم: الأمم السابقة [وليست أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذه الأمة مؤمنها وكافرها سيكون الرسول شهيدا عليهم].

ولأن شهادة المؤمنين تختلف عن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقد قدمت شهادتهم على شهادته في الذكر [في آية البقرة]

❖ ❖

وإنما اجتبى الله هذه الأمة وجعلهم شهداء على الناس؛ لأنهم خاتم الأمم، وليس هنالك أمة بعدها، ولا رسول بعد رسولهم، ولا كتاب بعد كتابهم، ولا دين بعد دينهم. فختم الله بهم الأمم، وأطلعهم على أنبائها، وأبلغهم أنه بعث في كل أمة رسولا، وأنهم

سيكونون شهداء على كل من سبقهم. فالأخير يشهد على من قبله، بينما السابق لا يستطيع الشهادة على اللاحق.

❖ ❖

فاجتباء الله لهذه الأمة، وجعْلُها أمة وسطا، يعني أنه جعل المسلمين أمة خاتمة للأمم كلها، وأنه فضّلها بهذا، وميزها بالدين الذي لا حرج فيه، وميزها بوراثة الاسم (المسلمين)، وميزها بولاية إبراهيم عليه السلام. وهذا الاجتباء كله؛ ليكون المسلمون شهداء على الناس.

قال تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ). **فإبراهيم كان مسلما، وأولى الناس به من اتبعه، وهو النبي والذين آمنوا، والله وليهم. ومن ثم فوراثة اسم (الإسلام) آلت إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو اسم الدين الذي ارتضاه الله لخلقه.**

وقوله (وما جعل عليكم في الدين من حرج)، هو دعاء المسلمين: (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا). **فرفع الإصر عنهم، وما جعل عليهم في دينهم من حرج، بل جعله دينا ميسرا، وهذه المزية جعلها لنا أنْ كنا أمة وسطا (مجتباة خاتمة)، فرفع الحرج حتى يطهر الله هذه الأمة، وتتم نعمة الاجتباء عليهم، كما قال:** (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ، **أي: تشكرون الله أن رفع الحرج عن دينكم.**



المسألة الثالثة: هل كل المسلمين شهداء على الناس؟

أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنْ سيتخذ منا شهداء، فقال: (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ). **فلم يقل: ويجعلكم شهداء، وإنما يتخذ منكم شهداء فيشهدون على الناس.**

وقد تحدثت سابقا أن الشهداء هم أولو العلم القائمون بالقسط. (راجع: شهد الله أنه لا إله إلا هو).

وهذا ما يبينه القرآن الكريم،

قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)،

وقال: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ).

فقد ربط خيرية هذه الأمة بالإيمان بالله والقيام بالقسط (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وقوله (ولتكن منكم أمة...)، هي أمة مؤمنة بالله قائمة بالقسط، وهم أولو العلم القائمون بالقسط، فأمرهم بذلك ونهاهم عن أن يختلفوا وقد جاءهم البينات، ولا يحدث ذلك إلا من أولي العلم. وقال تعالى: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)، **فهما أمران: الهداية بالحق (الشهادة بالحق)، والقيام بالقسط.**

وقال في آية الحج:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ

قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ).

فهذه الأوامر (اركعوا...) أعقبها بقوله: (هو اجتباكم)، فهو يقول لهم: كونوا أهلا لهذا الاجتباء الذي فضلكم الله فيه وميزكم، فافعلوا ما أمرتم به.

ومن ثم فمن فعل ذلك فهو من تلك الأمة. وهؤلاء هم الشهداء الذين يتخذهم الله، فيكونون شهداء على الناس.

فهذه صفات الشهداء الذين يتخذهم الله سبحانه وتعالى. والسؤال الآخر: كيف يتخذ الله شهداء من المؤمنين؟

تبين آية آل عمران ذلك:

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ).

فالابتلاءات هي محك الاختبار، وهي المعمل الذي يبين معادن الرجال، والناس في الرخاء يستوون، وإنما يختلفون عند الشدائد، ويتمايزون عند البلاء. فالبلاء يمحص المؤمنين، حتى يصفو منهم الشهداء. والآيات تبين أن الشهداء الذين يتخذهم الله هم من المجاهدين الصابرين، وهو كقوله أيضا: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ). **وهو الأمر ذاته الذي أمر به المؤمنون في سورة الحج** (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ).

❖ ❖

المسألة الرابعة: من يقصد بالناس في قوله (شهداء على الناس)؟

ذكرت أن المقصود بالناس: الأمم السابقة، فالمسلمون شهداء على الأمم السابقة؛ إذ بهم ختم الله الأمم.

فإن قيل: وعلام يشهد المسلمون؟

فالجواب أنهم يشهدون على ما شهدت به الأنبياء، فهم يشهدون أن الله شهد بالحق، وأن هذا الحق قد تبين للناس جميعا، وأن كل الأمم قد استبانت لديهم الحجج والبراهين، وأن الرسل بلغت ما أمرت به، ولم يفرطوا في ذلك. فهم يشهدون على الناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم، كما يشهد الأنبياء على ذلك. قال تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ).

فإن قيل: وكيف يشهد المسلمون على ما لم يدركوه؟ قال بعض المفسرين أن الأمم تعترض على شهادة المسلمين ويقولون: كيف يشهدون وهم لم يدركوا؟ فيقول المسلمون: أي ربنا جاءنا رسولك ونزل إلينا كتابك فنحن نشهد بما عهدت إلينا وأعلمتنا به، فيقول الله تعالى: صدقتم.

ولكن السؤال الوارد هنا، أن الله سبحانه وتعالى يقول: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)، **فما كل الرسل قص الله علينا نبأهم في القرآن الكريم، فإن شهدنا على الأمم التي قص الله علينا أنباءها، فكيف بالأمم الأخرى؟**

فالجواب أن الله سبحانه وتعالى قال لنا في كتابه: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)، (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

نَذِيرٌ)، (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا). **فهذه الآية ونحوها آية جامعة، تبين للمسلمين أن كل أمة قد جاءها رسول، ومن ثم فنحن نعرف هذا الأمر إجمالا في الدنيا، وعلمنا تفاصيل بعض الرسالات، بما قص الله علينا في كتابه. فإذا كان يوم القيامة يفصل الله لنا ذلك الأمر، فيقول: هذا رسولي فلان بعثته إلى هذه الأمة الفلانية، فيشهد الرسول على قومه، (وهو شهيد عليهم من أنفسهم)، ثم يشهد المسلمون عليهم كما شهد رسولهم، فهم شهدوا بما علموه إجمالا في الدنيا، وتفصيلا في الآخرة، ومصدر علمهم هو الله سبحانه وتعالى.**

(هـ) فاكتبنا مع الشاهدين

قال تعالى: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ). **فالحواريون سألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين.**

مع المفسرين:

قال الطبري: (فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرُّوا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحِلَّنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: (وفي المراد بالشاهدين خمسة أقوال، أحدها: أنهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأمته؛ لأنهم يشهدون للرسل بالتبليغ. والثاني: أنهم من آمن قبلهم من المؤمنين. والثالث: أنهم الأنبياء؛ لأن كل نبي شاهد أمته. والرابع: أن الشاهدين: الصادقون. والخامس: أنهم الذين شهدوا للأنبياء بالتصديق).

التحقيق:

والذي يبدو لي أن كل أمة سيشهد عليها من اتخذهم الله شهداء من الأمة نفسها، وتكون شهادتهم على أمتهم فقط، وليس على الناس، وهذا ما سأل الحواريون ربهم أن يكتبهم مع الشاهدين، فهم لم يسألوا ربهم ذلك إلا لعلمهم بأن ثمة شهداء يشهدون.

والله سبحانه وتعالى أخبر المؤمنين أنه اجتباهم ليكونوا شهداء على الناس. فهم سيشهدون على جميع الأمم، دون استثناء. ومن ثم فهذه المزية خاصة بالمؤمنين، وهي الشهادة على الناس (أي: الأمم السابقة).

فيكون دعوة الحواريين دالة على أن في كل أمة شهداء.

وقد تحدثت عن الآية في الجزء الثالث من السلسلة (شهد الله أنه لا إله إلا هو).



فالخلاصة أن كل أمة يشهد عليها ثلاثة شهود من البشر:

الأول: نبيها الذي بعثه الله إليهم.

الثاني: شهداء الأمة نفسها، يشهدون على أمتهم فقط.

الثالث: المسلمون (الشهداء منهم) يشهدون على كل أمة.

قال تعالى: (وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ). **فالشهداء من الأمم يشهدون على أممهم فقط، والشهداء من المسلمين يشهدون على الناس جميعا، والأنبياء أنفسهم لا يشهد كل نبي إلا على أمته، حتى محمد صلى الله عليه وسلم، سيشهد على أمته فقط. كما بينت آنفا.**

□

القسم الثاني: الشهداء يوم القيامة

وشاهد ومشهود

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾. **ذكر ابن الجوزي في تفسير قوله (وشاهد ومشهود) أربعة وعشرين قولا، يمكن الرجوع إليها في كتابه: زاد المسير.**

والذي يبدو لي أن قوله (وشاهد ومشهود): كل نفس، فكل نفس شاهدة ومشهود عليها في الوقت نفسه. فهو يوم الشهادات. فالإنسان شاهد على نفسه، ومشهود عليه: يشهد عليه كتابه، وتشهد عليه الأرض التي كسب عليها، وتشهد عليه جوارحه، ويشهد عليه الملائكة، ويشهد عليه ربه.

فهو شاهد يشهد على نفسه، وهو مشهود عليه. فما من امرئ إلا وهو (شاهد ومشهود).

وهذا المعنى يطرد مع سياق سورة البروج، حيث يقسم باليوم الموعود، وهو يوم القيامة، ثم يتحدث عن ذلك اليوم، بأنه يوم الشهادات (شاهد ومشهود). وذكر بعد ذلك قصة أصحاب الأخدود، وقال: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، **أي: شهود على فعلهم، فيكونون شاهدين على أنفسهم، فهم شهود ومشهود عليهم في الوقت نفسه.**

□

مشهدان للقضاء، في كل مشهد شهادة

يوم القيامة مشهدان:

قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)، **فهما أمران: شهادة الله بالحق (أنه واحد)، وقيامه بالقسط. وقد أمر الناس بهما: أن يشهدوا بما شهد به (بالحق)، وأن يقوموا بما قام به (بالقسط).**

وسيكون للقضاء يوم القيامة مشهدان، المشهد الأول: مشهد القضاء بالحق، والثاني: مشهد القضاء بالقسط.

وقد جاء القضاء بالحق في أربعة مواضع،

قال تعالى: (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)،

وقال: (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) **مرتين،**

وقال: (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ).

وسياق هذه الآيات يبين أن هذا القضاء هو القضاء في الشهادة بوحدانية الله، من آمن بذلك ومن كفر.

وأما القضاء بالقسط، فقد ورد في موضعين: (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ).

فالقضاء الأول بين الناس، هو القضاء بالحق (أي بشهادتهم بالحق)، والقضاء الثاني هو القضاء بالقسط (أي بقيامهم بالقسط). فالله شهيد بالحق وسيقضي بين الناس بالحق الذي أمرهم أن يشهدوا به. والله قائم بالقسط وسيقضي بين الناس بالقسط الذي أمرهم أن يقوموا به.

وفي كل مشهد منهما شهادة؛ فثمة شهادتان في ذلك اليوم العظيم، الشهادة الأولى هي الشهادة بالحق، والشهادة الثانية هي الشهادة بالقسط.

وقوله تعالى: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، **يشير إلى المشهد الأول، وهو مشهد القضاء بالحق؛ فهم كفروا بالله وادعوا معه آلهة أخرى. فويل لهم من مشهد ذلك اليوم.**

وآيات القرآن الكريم تشير إلى هذين القضاءين، أحدهما متعلق بشهادة الحق، والثاني متعلق بالقيام بالقسط، كقوله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)، **فالإيمان بالله العظيم يكون الفصل فيه في المشهد الأول (مشهد الشهادة بالحق)، والحض على طعام المسكين هو من أعمال القسط، ويكون الفصل فيه في المشهد الثاني (مشهد الشهادة بالقسط).**

وكقوله: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ). **فالكفر يكون الفصل فيه في المشهد الأول (مشهد الشهادة بالحق)، ومنع الخير هو من أعمال القسط، ويكون الفصل فيه في المشهد الثاني (مشهد الشهادة بالقسط).**

وسأتحدث هنا عن الشهادة في كل مشهد منهما.

والقول بهذا يؤيده حديثا رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم، الحديث الأول: «إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة». فبعد الشهادات والإقرار بها، يكون الحساب لكل نفس بشهادتها لله وعبادتها له، والصلاة هي مظهر العبودية لله سبحانه وتعالى، فتكون أول شيء يحاسب عليه العبد.

والحديث الثاني المتفق عليه: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء». فهو أول قضاء في المشهد الثاني.

❖ ❖

أخذ الكتب أولاً:

وبداية مشهدَي القضاء يكون بأن تؤتى كل نفس كتابها، فتأخذه إما بيمينها (من أمامها)، وإما بشمالها (من وراء ظهرها)،

قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ).

وقال سبحانه: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا).

وقال: (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ).

وقال: (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا).

وقال: (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا).

فهذه الآيات تدل على أن الحساب يكون بعد أخذ الكتب، ومن ثم

فالمشهد مختلف، فالنتيجة تسبق القضاء، ثم يأتي القضاء بالحق وبالقسط فلا تظلم نفس شيئا، ولا يغادر الكتاب صغيرة ولا كبيرة، والناس أنفسهم يأتون للقضاء وأعمالهم مشهودة غير غائبة، يرونها. فيكون القضاء بعد ذلك للشهادات، وإقامة الحجج.

□

مشهد يوم عظيم:

قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ). **وقد تحدثت عن الآية في الجزء الثاني (عالم الغيب والشهادة).**



وقوله تعالى: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ). **قال الشوكاني: (أي: من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والعقاب، أو من مكان الشهود فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم. وقيل: فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور).**

ويوم اجتماعهم يقصد به يوم اجتماع أحبار النصارى [في مجمع نيقية عام ٣٢٥هـ]، فاختلفوا في عيسى، بين قائل بأنه عبد الله ورسوله [وهؤلاء هم المؤمنون]، وقائل بأنه الله، وقائل بأنه ابن الله، وقائل أنه ثالث ثلاثة.

و(مشهَد)، هو بصيغة: مَفْعَل، ويدل في العربية على المصدر أو اسم المكان أو اسم الزمان. وفعله (شهِد)، وهو يدل على الشهود أو الشهادة. وقد حُمل اللفظ في الآية على كل الاحتمالات، فمحصلتها ستة أقوال، ذكرها المظهري: (أي من شهود يوم عظيم هوله وحسابه وجزاؤه وهو يوم القيامة، أو من وقت الشهود، أو من مكانه فيه. أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالفسوق والكفر، أو من وقت الشهادة عليهم، أو من مكانها).

ويرجح لدي أن (مشهد) من الشهود لا من الشهادة، فذلك هو المطرد استخدامه في العربية. ثم إن سياق الآية يبين أن التهديد والوعيد متعلق بالحدث، بغض النظر عن زمانه أو مكانه. فالله يخوف الناس من أهوال يوم القيامة، وما يحدث فيه من شيء عظيم.

و(يوم عظيم) اطرد مجيؤه في القرآن الكريم وصفا ليوم القيامة، كقوله: (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ). ولا مسوغ لحمله على يوم اجتماعهم، حين اختلف الأحزاب من بينهم.

ولكن استخدام لفظ (مشهد) وهي المرة الوحيدة في القرآن الكريم له صلة بيوم اجتماع أحبار النصارى في مجمع نيقية عام ٣٢٥هـ، واختلافهم في عيسى نبي الله عليه السلام، بين قائل بأنه عبد الله ورسوله [وهؤلاء هم المؤمنون]، وقائل بأنه الله، وقائل بأنه ابن الله، وقائل أنه ثالث ثلاثة.

فالمعنى: لقد شهدوا ذلك اليوم (حين اجتمعوا)، وأقروا الكفر بالله، وكان مشهدا عظيما اجتمعت فيه أساقفة النصارى (وهم الذين أوتوا العلم الذي أنزل على عيسى). فويل للذين كفروا بالله وكذبوا عليه، وما كان له أن يتخذ ولدا - من مشهد يوم عظيم هو أعظم من ذلك المشهد الذي باعوا فيه دينهم وآخرتهم بثمن قليل من الدنيا.

فلفظ (مشهد) يقارن لهم بين مشهدين، مشهد يومهم في الدنيا، ومشهد يوم عظيم في الآخرة. فويل لهم من مشهد يوم عظيم، أي من أحداثه وأهواله التي تجري فيه، فيخزيهم الله حينئذ؛ بما افتروا

عليه الكذب.

و(مشهد يوم عظيم)، هو أحد المشهدين اللذَين يقضي الله فيهما بين خلقه، الأول: مشهد القضاء بالحق، والثاني: مشهد القضاء بالقسط. كما سأبينه لاحقاً.

(١) المشهد الأول: الشهادة بالحق:

خلاصة المشهد:

المشهد الأول، من مشاهد اليوم العظيم، يكون الحكم فيه فيما يتعلق بشهادة الوحدانية، واختلاف الناس في هذه الشهادة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾،

وقال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، **أي: جاعل من اتبعك وشهد أنك عبد الله ورسوله، وأني إله واحد، فوق من كفر بي وجعلك ابنا لي، أو إلها معي.**

فالحكم فيه بالشهادة بالحق، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. **فالشهادة بالحق أن الله الحق (إله واحد)، وأن ما دونه الباطل، وأنه بيّن شهادته وأقام عليها البينات، وأنه أرسل الرسل وأنزل الكتب. وهي أعظم الشهادات. وفيها يشهد الله بأنه لا إله إلا هو، ثم يأتي الشهداء (النبيون والشهداء)، ثم يقوم الأشهاد.**

فالشهداء هم المذكورون في قوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ)، **فالنبيون شهداء، والشهداء غير النبيين هم من اتخذهم الله شهداء، وهم أولو العلم الذين شهدوا بوحدانية الله ﴿ الدنيا، وماتوا وهم على ذلك.**

والأشهاد هم المذكورون ﴿ قوله: (وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)، **وهم عامة الخلق الذين آمنوا بالله إلها واحدا، سواء آمنوا طوعا أو كرها. فكل مخلوق سيشهد بوحدانية ربه، والسماوات والأرض سيشهدن بالحق، وأن الله ما خلقهن إلا بالحق. وكل نفس ستشهد بالحق، وأن الله ما خلقها إلا بالحق.**

ويأتي الكافرون فيريدون أن يشهدوا بالحق، فيقال لهم: مهلاً مهلاً، ألم تكونوا تشهدوا أن مع الله آلهة أخرى، فيحلفون ويقولون: (والله ربنا ما كنا مشركين). ... وفي الأخير تقام عليهم الحجة فيعترفون ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (كما بينت ذلك آنفا).

وعندئذ يلعن هؤلاء الأشهاد كلهم من كفر بربه وكان يشهد بالباطل في الدنيا. وتنتهي الجولة الأولى من مشهد اليوم العظيم. وسأفصل القول في هذه المواقف.

❖ ❖



وجيء بالنبيين والشهداء:

يبعث الله النبيين والشهداء بالحق. وهذا قوله: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). **فالنبيون يشهدون على أممهم، والشهداء يشهدون بالحق.**

قال تعالى في شهادة النبيين:

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)،

وقال: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ)،

وقال: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا).

فالنبيون يجاء بهم فيشهدون. فالشهداء في هذه الآيات الثلاث هم الأنبياء. (وهذا هو: **الشهيد المبعوث**). **حيث استخدم مع الشهيد بالحق لفظ: البعث، والمجيء، فهي كرامة لهؤلاء الشهداء.**

بخلاف قوله: (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)، **فهؤلاء هم الشهداء بالباطل، وتأمل هنا استخدم القرآن الكريم لفظ: النزع، (ونزعنا)، وفيه إهانة لهؤلاء الشهداء، وهو كقوله:** (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا). **(فهذا هو: الشهيد المنزوع).**



وهؤلاء الشهداء هم أفضل الناس، وهم المقصودون بقوله تعالى: (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)، (وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)، **والمؤمنون يدعون ربهم بأن يجعلهم منهم:** (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)، (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ). **وقد تحدثت عنهم عند شهادة أولي العلم بوحدانية الله (انظر: شهد الله أنه لا إله إلا هو).**

فاللهم ربنا آمنا بما أنزلتَ واتبعنا رسولك فاكتبنا مع الشاهدين.

ويوم يقوم الأشهاد:

قال تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)،
وقال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ).

الأشهاد في ذلك اليوم، هم عامة الخلق (الذين آمنوا بالله إلها واحدا طوعا أو كرها) ممن يشهدون بأن الله هو الحق وأن ما دونه الباطل. (وهم غير النبيين والشهداء، فهؤلاء شهداء).

فكل مخلوق يأتي وينطق بشهادته بالحق، شاهدا بأن الله واحد لا شريك له، وأن الله قد شهد بذلك: الملائكة، والسماوات والأرض، وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله. والمؤمنون من الإنس والجن. فكلهم يشهدون بالحق، وأن الله ما خلقهم باطلا، بل خلقهم بالحق.

فشهادتهم جميعا بالحق، يشهدون ألا إله إلا الله، وأنه شهد بشهادته، وأنه أقام البينات على شهادته، وأن الناس جاءتهم البينات، فمن آمن بربه فله الكرامة، ومن كذب به فهم الظالمون الذين افتروا على الله الكذب، فلا تنفعهم معذرة، ولا لهم العتبى، ولهم اللعنة وسوء الدار.

◻

وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين:

ويوم القيامة يأتي الله بأولئك الذين شهدوا بالباطل، وقد استيقنوا أنهم شهدوا بالباطل، فيسألهم عن شهادتهم،

قال تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ)،

وقال: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ).

فيمنحهم عدة فرص لإثبات شهادتهم،

فيناديهم: أين شركائي الذين شهدتم لهم؟ (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ)، **فيقولون: ما أحد منا يشهد بهذا الباطل، ويتبرأ منهم من أشركوا بهم.**

فقوله (ما منا من شهيد)، أي: ما أحد منا يشهد بهذا الباطل، فهم ينفون عن أنفسهم أنهم كانوا مشركين، فكلهم يحلف بالله أنه ما كان مشركا، وأنهم ما شهدوا أن مع الله آلهة أخرى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)، (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ).

فيأتي الله بأكابرهم الذين شهدوا بالباطل في الدنيا، فيقول لهم: أنتم شهدتم بآلهة أخرى فما بيناتكم على شهادتكم؟! (وَنَزَعْنَا مِنْ

كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)، **فعلموا أن شهادتهم باطلة، وأن شهادة الله هي الحق. وهذا هو (الشهيد المنزوع).**

كما أنهم يحاولون أن ينكروا أنهم شهدوا بالباطل، فيختم الله على أفواههم، ويقيم عليهم شهداء من أنفسهم: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ). **فيعلمون أن الله هو الحق، هو الإله الواحد الذي لا شريك له.**

وفي محاولة أخيرة منهم، يحاولون إلقاء تبعة شهادتهم بالباطل على شركائهم، ويحملونهم المسؤولية، (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ). **فيتجادلون معهم، فينفي شركاؤهم أنهم كانوا على علم بهم وبشهادتهم.** (إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)، (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا).

وعندئذ يقول الأتباع: كفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا نغفل عن عبادتكم. قال تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ).

وحين لا يجدون محيصا، وتقام عليهم الحجج البينة، يقرون

ويعترفون، ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، وأنهم شهدوا بالباطل في الدنيا: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ). **ويندمون ولات حين مندم** (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ). **ويومئذ يكفرون بشركائهم الذين آمنوا بهم، ويعلمون أنهم باطل** (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ). **كما كفر بهم شركاؤهم.**

وقوله (ويومئذ يتفرقون)، أي يتفرق الشركاء ومن أشرك بهم، فيقولون: هل ضلوا عنا؟ وقد دلت آيات كثيرة على ذلك،

كقوله: (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)،

وقوله (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)،

وقوله: (قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)،

وقوله: (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)،

وقوله: (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ)...



متى يكون المجيء ومتى يكون القول؟

وقوله تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ).

اختلف المفسرون في قوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا..)، متى يكون المجيء ومتى يكون القول؟

وقوله (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) يحتمل أن يكون ذلك المجيء حين تتوفاهم الرسل بالموت. ويحتمل أن يكون يوم القيامة، والرسل هم ملائكة العذاب حين يأخذونهم إلى جهنم.

والذي يترجح لدي أن القول (قالوا أين ما كنتم...) سيكون يوم القيامة، حين يشهدون على أنفسهم في آخر المطاف بالكفر، بعد أن يحاولوا التملص فلا ينفعهم ذلك.

والأرجح لدي، أن المعنى كما يلي:

(أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب)، أي: أجلهم المسمى الذي في كتابهم، فالله لا يؤاخذهم بذنوبهم في الدنيا، بل لهم أجل مسمى، كما قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة.

(حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم)، ذلك حين الموت، بعد أن ينتهي أجلهم المسمى.

(قالوا أين...)، هذا القول من الرسل والجواب من الكفار لا يكون

في غمرات الموت، ولكنه يكون يوم القيامة، حين يشهدون على أنفسهم في آخر المطاف بالكفر، بعد أن يحاولوا التملص فلا ينفعهم ذلك. ودليله أنه قال عقبه (قال ادخلوا في أمم...)، فهذا الدخول قطعا لا يكون إلا يوم القيامة، حين يدخلون النار فيتجادلون فيها. وكون مجيء الرسل للتوفي، لا يعارض هذا، فالقرآن الكريم يعرض مشاهد الغيب فينتقل من مشهد إلى آخر، ويسوغ هذا الانتقال أن من مات فقد قامت قيامته، فهو يقول (حتى إذا توفتهم الرسل)، وطوى خبرهم، إذ هو خبر منتهي، وهم ميتون لم يعد لهم فعل خير أو شر، فقد أفضوا إلى ما قدموا، وانتقل إلى مشهد اعترافهم بكفرهم، وهو ما يرتبط بسياق الآية، التي تبين ظلمهم في افترائهم على الله الكذب (إذ شهدوا بالباطل)، وأنهم سيندمون على هذه الشهادة الباطلة ويعترفون، ولكن بعد فوات الأوان.

❖ ❖

فبعد أن تُتاح الفرصة للكافرين الذين شهدوا بالباطل، تتاح لهم فرصة ليأتوا ببرهانهم، فيعجزون. عندئذ لا يؤذن لكل من شهد بالباطل أن يتكلم، ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.



يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون:

بعد شهادة الله، والشهداء، والأشهاد، وشهادة الكافرين بكفرهم. تكون خاتمة المشهد باللعنة.

قال تعالى: (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ). **أي يلعنهم الأشهاد. كما قال في الآية الأخرى:** (وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

فالشهداء والأشهاد كلهم يلعنونهم، وهو قوله: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)، (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). **فهؤلاء هم الشهداء والأشهاد: الله والملائكة والناس أجمعين.**

وقوله (والناس أجمعين)، دون استثناء، ويشمل حتى الكافرين أنفسهم، فهم من الأشهاد ستشهد عليهم جوارحهم، وهم سيشهدون على أنفسهم بالكفر، وحينئذ يلعنون أنفسهم مع اللاعنين.

قال تعالى: (أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)،

وقال: (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)،

وقال: (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ)،

وقال: (لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ).

وحين يدخلون جهنم يلعن بعضهم بعضا (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)، (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا).

يا رب نعوذ بك من لعنتك ولعنة اللاعنين.

(٢) المشهد الثاني: الشهادة بالقسط:

المشهد الثاني من مشاهد القضاء يوم القيامة، هو القضاء على كل نفس بما كسبت. وفيه يتحقق إقامة القسط تحققا تاما، كما تحققت في المشهد الأول: الشهادة بالحق تحققا كاملا.

قال تعالى: (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)،

وقال: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ).

وقال: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

وكسب النفس، قسمان: كسب متعلق بحقوق الناس، وقسم لا يتعلق بحقوق الناس.

الكسب المتعلق بحقوق الناس:

فيبدأ بالقضاء في الكسب المتعلق بحقوق الناس، وأوله الدماء، كما في الحديث: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء». فالله يقضي بين الناس ويفصل بينهم. قال تعالى: (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». [رواه البخاري].

وقال عليه الصلاة والسلام: ("يحشر الله الناس عراة غرلاً بُهْما، قيل: ما بُهْما؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد ومن قَرُب، أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار وواحد من أهل الجنة يطلبه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف وإنما نحشر حفاة عراة؟ قال: "بالسيئات والحسنات").

ونقل القرطبي في التذكرة عن ابن مسعود: (يؤخذ بيد العبد أو الأَمَة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادي منادٍ: هذا فلان ابن فلان فمن كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة بأن يدون لها الحق على ابنها أو أختها أو أبيها أو على زوجها، ثم قرأ ابن مسعود "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون"، فيقول الرب تعالى للعبد: ائت هؤلاء حقهم، فيقول: يا رب فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم؟ فيقول للملائكة: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته، فإن كان ولياً لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خبر ضاعفها حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ "إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً". وإن كان عبداً شقياً، قالت الملائكة: رب فنيت حسناته وبقي طالبون، فيقول للملائكة: خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار).

وروى البخاري مرفوعا: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن

رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته».

وروى أحمد مرفوعا: (ويل للأمراء، ويل للعُرَفاء، ويل للأُمَناء، ليتمنينَّ أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثُّريا يتذبذبون بين السماء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء).

❖ ❖

وحتى إنه سبحانه وتعالى يقيم القسط بين البهائم، فقد ورد في الحديث: (يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجَمّاء من القَرْناء حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: " يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا") [أخرجه ابن جرير وغيره، وصححه الألباني]. وهذا القصاص ليس قصاص تكليف، ولكنه لتحقيق إقامة القسط في الخلق تحققا تاما، لا ينقص منه مثقال ذرة.

❖ ❖

والحديث الذي رواه البخاري: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قَنْطَرَةٍ بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا وَنُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»، قال القرطبي: (هؤلاء المؤمنون هم الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم).

ونقل ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي

صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ)، قال: (عن الحسن قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراطَ حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظَلامَتِهِمْ في الدنيا، فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل). فنزع الغل يكون بإقامة القسط التام بينهم، حتى لا يبقى لأحد على آخر مثقال ذرة من مظلمة.



الكسب غير المتعلق بحقوق الناس:

ثم بعد ذلك يكون القضاء في كسب كل نفس مما لا تعلق له بحقوق الناس.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم" [رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني].

وقال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ).

قال الطبري: (ثم ليسألنكم الله عزّ وجلّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به). وقال ابن كثير: (ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك.)، وقال مجاهد: (عن كل لذة من لذات الدنيا). وروى الترمذي وغيره: «إن أول ما يسأل العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح جسمك؟ ونروك من الماء البارد». وعند أحمد يرفعه: "يقول الله،

عزوجل يوم القيامة: يا بن آدم، حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تربع وترأس، فأين شكر ذلك؟".

فالنعيم كل ما أنعم الله به على الإنسان من أمن وصحة، ومن سمع وبصر، ومن مال وولد، ومن جاه وملك، ومن طعام وشراب، ومن مسكن وملبس، ومن هناءة النوم والتذاذ بما متعه الله في الدنيا، كالنوم والأكل، والنكاح... وعامة متاع الدنيا، (وطيب النفس من النعيم).

قال تعالى: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)،
وقال: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا).

❖ ❖

وفي هذا المشهد، لا يشهد النبيون ولا أحد من البشر، قال تعالى: (وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

والشهداء فيه، هم: الله، والملائكة، والكتاب، والجوارح، والأرض.

فالله يشهد على كل نفس بما كسبت، ويجازيها على كسبها.

وقد اقتضت سنته سبحانه وتعالى أن يجعل على كل نفس شهيدا من الملائكة، يكتب كل ما تعمله النفس من خير أو شر.

وكل نفس تأتي يوم القيامة وكتابها الذي كتب فيه أعمالها أمامها، فترى مثاقيل الخير والشر فيه.

كما اقتضت سنته سبحانه أن يجعل على كل نفس شهيدا من نفسها، فكل نفس شهيدة على عملها، فجوارحها تسجل أعمالها،

وستشهد هذه الجوارح بما سجلته.

كما تشهد عليه الأرض التي كان يكسب عليها.

فهؤلاء كلهم شهود على أعمال كل نفس: الله شهيد على كل نفس، وكل نفس شهيدة على نفسها، وكتابها شهيد عليها، والملائكة شهود عليها.

فلا منجاة للإنسان في ذلك اليوم – وهؤلاء كلهم شهود عليه – إلا كسبه، فذلك قوله أن النفس رهينة بكسبها، لا تنجو من هول ذلك اليوم إلا بالكسب الصالح.

▱

(أ) شهادة الله على كل كسب:

قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)،

وقال: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)،

وقال: (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)،

وقال: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ).

هذه شهادة قيامه بالقسط، فهو شهيد على كسب كل نفس. وشهادته تعني اطلاعه وإحاطة علمه بكسبها، ثم مجازاتها عليه. وقد تحدثت عن هذه الشهادة عند حديثي عن بينات شهادته بوحدانيته.

وهذه الشهادة على أفعال العباد، تقتضي أن يأتي الله بمن شهد عليهم، فيجازيهم على ما كانوا يفعلون.

وسينبئهم ربهم بكل ما عملوا، فهو على كل شيء شهيد.

(ب) كل نفس معها سائق وشهيد:

قال تعالى: (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ).

قال الطبري: (جاءت يوم ينفخ في الصور كلّ نفس ربها، معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شرّ).

وقال الماوردي: (أما السائق ففيه قولان: أحدهما: أنه ملك يسوقه إلى المحشر. الثاني: أنه أمر من الله يسوقه إلى موضع الحساب. وأما الشهيد ففيه أربعة أقاويل: أحدها: أنه ملك يشهد عليه بعمله. الثاني: أنه الإنسان، يشهد على نفسه بعمله. الثالث: أنها الأيدي والأرجل تشهد عليه بعمله بنفسه. ثم في الآية قولان: أحدهما: أنها عامة في المسلم والكافر. الثاني: أنها خاصة في الكافر).

وقال أبو السعود: (أي معها ملكان، أحدهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها، أو ملك جامع بين الوصفين كأنه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليها، وقيل: السائق كاتب السيئات والشهيد كاتب الحسنات، وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله).

والذي يتبين من سياق الآيات أن هذا الشهيد هو الملك الموكل بالنفس، الذي كان يكتب ما عملت من خير أو من شر. وهو المذكور في قوله تعالى:

(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)،

وقال: (سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ)،

وقال: (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)،

وقال: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)،

وقال: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ).

وقال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ).

فهذه الآيات تبين أن علم الله محيط، وأنه يعلم وسوسة النفوس، وأنه أوكل بكل نفس ملكين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، وأنهما أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، فيحصيان عليه كل عمل يعمله. وتنتقل الآيات إلى مشهد القضاء، فيأتي ذلك الشهيد الذي كتب كل شيء بشهادته، ويقول: (هذا ما لدي عتيد)، أي: مُحضَر.

(ج) الكتاب:

وتأتي كل نفس يوم القيامة وكتابها الذي كتب فيه أعمالها أمامها، فترى مثاقيل الخير والشر فيه. (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)، **فهو شهيد على نفسه وحسيب عليها.**

فالكتاب هو سجل لكل مثاقيل الخير والشر، وهو الكتاب الذي كانت تدون فيه الملائكة أعمال الإنسان [وليس أم الكتاب الذي كُتب فيه كسب النفوس من قبل خلقها]. فيأتي الكتاب ينطق بالحق، قال تعالى: (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، **وقال:** (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). **أي كنا نستنسخ من أم الكتاب ما كنتم تعملونه، فنسجله في الكتاب (وهو كتاب أعمالكم). وقد تكلمت عن الآية سابقاً في (عالم الغيب والشهادة).**

وقال: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)،

وقال: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا).



تفسير قوله (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)،

مع المفسرين:

فسر ابن عباس (الطائر) بأنه (عمل الإنسان)، وقال البيضاوي: (طائره: عمله وما قدر له، كأنه طير إليه من عش الغيب ووكر القدر، لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بسنوح الطائر وبروحه، استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد).

وقال ابن الجزري في زاد المسير: (وفي الطائر أربعة أقوال: أحدها: شقاوته وسعادته. والثاني: عمله. والثالث: أنه ما يصيبه من قدر. والرابع: أنه ما يتطير من مثله من شيء عمله).

ونقل في زاد المسير عن ابن قتيبة: (والمعنى فيما أرى - والله أعلم -: أن لكل امرئ حظا من الخير والشر قد قضاه الله عليه، فهو لازم عنقه، والعرب تقول لكل ما لزم الإنسان: قد لزم عنقه، وهذا لك علي وفي عنقي حتى أخرج منه، وإنما قيل للحظ من الخير والشر: «طائر» ، لقول العرب: جرى له الطائر بكذا من الخير، وجرى له الطائر بكذا من الشر، على طريق الفأل والطيرة، فخاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر، هو الذي يلزمه أعناقهم). ونقل عن الأزهري: الأصل في هذا أن الله تعالى لما خلق آدم، علم المطيع من ذريته، والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضى سعادة من علمه مطيعا، وشقاوة من علمه عاصيا، فصار لكل منهم ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه، فذلك قوله: ألزمناه طائره في عنقه).

التحقيق:

والتحقيق أن (طائره) هو الكسب الذي رهنت به كل نفس، (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)، فإلزامه طائره، جعله ملازما له لا ينفك عنه، فهو مرتهن به، وطائره: كسبه، وقد فسره ابن عباس بأنه (عمل الإنسان). فكل إنسان رهين بكسبه حتى يأخذ كتابه إما بيمينه أو بشماله، فيقرأ كتابه، ويجازى بكسبه، وعندئذ ينفك الرهن، ويذهب كل منهم إلى مقره.

▱

(د) الجوارح:

وجوارح كل نفس شهيدة عليها، فهي تسجل ما جرحته النفس بالليل أو بالنهار، ثم تأتي يوم القيامة ناطقة به. فالله زود كل عضو كسبي من أعضاء الإنسان بذاكرة حافظة، لا نعرف كثيراً عن كنهها، وهذه الذاكرة تسجل كل شيء تقوم به، فالقلب يسجل ما يخفيه، واليد تسجل ما عملت، والرجل، واللسان، والعين، والأذن... الخ.

قال تعالى: (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)،

وقال: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)،

وقال: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

واليوم يفترض علماء النفس والدماغ أن للجسد نفسه ذاكرة، تقوم بربط الأحاسيس باستجابات حركية، ومن ثم تكون في الأيدي نفسها أو في الأرجل... ذاكرة إجرائية، تمكنها من تنفيذ المهام باستقلالية دون الرجوع إلى الدماغ. وهذه الأبحاث لا زالت في بداياتها، ولكنها تكشف لنا شيئا من دلالة شهادة الجوارح على الإنسان.

قال تعالى: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا)، **فالآية تشير إلى أن الألسنة هي التي تتلقى، فهي ذات قدرات دماغية مصغرة، يمكنها من التلقي مباشرة، وليس عبر الدماغ.**

▱

(هـ) الأرض:

قال تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

في تفسير الماوردي: ("يومئذٍ تُحَدِّثُ أخْبارَها" فيه ثلاثة أوجه، أحدها: تحدث أخبارها بأعمال العباد على ظهرها، وهذا قول من زعم أنها زلزلة القيامة، وهو قول أبي هريرة. الثاني: تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة. الثالث: تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها، قال ابن مسعود: فتخبر بأن أمر الدنيا قد انقضى، وأن أمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جواباً عند سؤالهم، وعيداً للكافر وإنذاراً للمؤمن).

قال ابن كثير: ("يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا"، أي: تحدث بما عمل العاملون على ظهرها)، ثم روى الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {يومئذ تحدث أخبارها} قال: "أتدرون ما أخبارها؟ ". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها"، ونقل ما رواه الطبراني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا، إلا وهي مخبرة".

وقد اختار أكثر المفسرين قول أبي هريرة، ولعل ما يرجحه

حديث السورة بعد ذلك عن رؤية الناس أعمالهم، فالأرض تقدم شهادتها في ذلك اليوم على كسب كل نفس، وما عمل عليها من خير أو شر، فيرى الناس المشهد رأي العين.

قال الماوردي: (في حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل، أحدها: أن الله تعالى يقلبها حيواناً ناطقاً فتتكلم بذلك. الثاني: أن الله تعالى يُحدث الكلام فيها. الثالث: يكون الكلام منها بياناً يقوم مقام الكلام).

وفي التذكرة للقرطبي: (عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: من سجد في موضع عن شجر أو حجر شهد له عند الله يوم القيامة).



وجاء في البخاري: (وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه، فجعله في سبيل الله، واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه، فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة). فالمال يكون شهيدا على صاحبه، والمال لفظ عام يشمل كل ما اقتناه الإنسان من عين أو منفعة ينتفع بها، فكما أن الأرض التي كسب عليها ستشهد عليه بما كسب من خير أو شر، فكذلك المال، ويشمل مقتنيات الشخص، من أجهزة، وملابس، وحتى سرواله يشهد عليه أحَلّه على حلال أم حرام، وحتى نعله يشهد عليه أخطا به إلى خير أو شر، وحتى قلمه الذي كتب به ليشهد عليه أكتب به خيرا أم شرا.

وبوّب القرطبي: (باب ما جاء في شهادة الأرض والليالي والأيام بما عمل فيها وعليها وفي شهادة المال على صاحبه).